

من أخبار القدس وفلسطين في أواخر العهد العثماني

قراءات في مجلة «ثمرات الفنون» البيروتية
سعيد إبراهيم الحسيني*

المتأخرة. والظروف الدولية التي سادت وقتذاك. رأيت أن أنقل بعضاً منها لاستفادة الباحثين والقراء. كانت الثمرات تصدر كل يوم ثلاثاء. وجاء في مقال العدد الأول الافتتاحي أنه «من أوضح البراهين على عدل السلطة إنشاء المدارس والمطابع التي هي لشموس المعارف مطالع. وإنشاء صحائف الأخبار لما انطوى عليه الليل والنهار. وقد استدعيت من ملجأ ولايه سورية الإنهاء إلى نظاره المعارف. [كانت هي الجهة المخولة بمنح الترخيص للجرائد]. بطلب الرخصة الرسمية فحصل ذلك. وحضر الأمر من الأستاذة العلية.»^١ وكان للثمرات وكلاء في مدن دمشق وأزمير وحيفا ويافا وقبرص. إلا أنه لم يعين لها في البداية وكيل في القدس الشريف. ثم عين لاحقاً الشريف مصطفى أفندي المالكي وكيلاً لها في المدينة.

أخبار القدس الدينية والحياتية

أولت ثمرات الفنون اهتماماً بأخبار القدس. خاصةً الدينية منها. لما كان لهذه الأمور من اعتبار لدى الدولة. فقد ذكرت أنه تمّ إعمار صخرة الله المشرفة. وأنه تمّ فرشها بالسجاد حسب العادة. وأنه قد شرع المصلون بالتردد عليها. وتذكر المجلة أن الأجر الصيني الذي يراد تزيين خارجها به قد تأخر وصوله. ويتحدث العدد الصادر في ١٣ ربيع الأول

عُثرت في خزانة أوراق الجد سعيد أحمد الحسيني^١ على أربع مجلدات من مجلة ثمرات الفنون البيروتية التي بدأ إصدارها عبد القادر القباني^٢ في ١٤ ربيع الأول ١٢٩٢ هـ. ٢٠ نيسان ١٨٧٥ م. وتعود هذه المجلدات إلى والده أحمد راسم سعيد الحسيني. قائممقام نقيب أشرف القدس ورئيس محكمة التجارة بها. ونظراً لما تحويه المجلة من أخبار مفيدة حول أحوال القدس وفلسطين في الفترة العثمانية

١ سعيد أحمد الحسيني ١٨٧٨-١٩٤٥ م. تولى رئاسة بلدية القدس سنة ١٩٠٥ م. عارض بيوع الأراضي إلى الصهاينة. اختير عضواً لمجلس المبعوثان العثماني مرتين. الأولى سنة ١٩٠٨ م. والثانية سنة ١٩١٤ م. عين وزيراً للخارجية في حكومة علي رضا الركابي في دمشق أثناء حكم الملك فيصل. وعاد إلى القدس بسبب المرض. لم يشارك خلال حكم الانتداب البريطاني بأي عمل رسمي. وتوفي في القدس سنة ١٩٤٥ م.

٢ كان العدد ٢٤٦ من ثمرات الفنون الصادر في ٢٨ رمضان ١٢٩٦ هـ. الموافق ٣ أيلول ١٨٧٩ م. هو العدد الأخير الذي وجدته ضمن المجموعة ولا ندري سبباً لذلك فالمجلة استمرت بالصدور لفترة طويلة بعد هذا التاريخ كما أن المشترك في المجلة أحمد راسم الحسيني عاش حتى سنة ١٨٩٢ م ويبدو أنه أوقف اشتراكه في المجلة لسبب ما.

٣ عبد القادر مصطفى القباني من أعيان بيروت اصدر ثمرات الفنون الأسبوعية مدة ثلاثة وثلاثين عاماً من ١٨٧٥ م وحتى ١٩٠٨ م. واستكتب فيها من المشاهير الشيخ إبراهيم الأحبب والشيخ يوسف الأسير وأحمد حسن طيارة وغيرهم. وهو من مؤسسي جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية. وكان أحد رؤساء بلدية بيروت. ومن مدراء المعارف والأوقاف الإسلامية. توفي سنة ١٩٣٥ م. أنظر الزركلي. خير الدين الأعلام. الطبعة الخامسة. المجلد الرابع. دار العلم للملايين. بيروت. ص ٤٦.

٤ العدد الأول. ٣٠ نيسان ١٨٧٥ م.

* كاتب من القدس. من المهتمين بتاريخ المدينة وتراثها.

حسين زاده سليم أفندي رئيسا. ويعقوب أفندي راحيل من طائفة اللاتين. وجريس جوهريه من طائفة الروم أعضاء. «وفي يوم الخميس الواقع في ٢٤ ربيع الأول ١٢٩٣ هـ. ٢٠ نيسان ١٨٧١ م. أمر سعادة متصرفنا الأفخم بعقد قومسيون الانتخاب حسب النظام الجديد الصادر بإجراء فرمان الإصلاحات العالي. فاجتمعت ذوات مجالس غزة ويافا والخليل. ووكلاء محلات نفس القدس الشريف والقرايا الملحقة بها. بهمة وحكمة متصرفنا. وذلك لتسمية عشرين ذاتا. عشرة من المسلمين. وثمانية من المسيحيين. واثنين من الموسويين.»

«وفي يوم الجمعة الواقع في ٣ من ربيع الثاني ١٢٩٣ هـ. ٢٨ نيسان ١٨٧١ م. دعا سعادة المتصرف حسين زاده عزتو مصطفى أفندي رئيس محكمة التجارة وخالدي زاده مكرمتلو بدر أفندي وحضرة الماجد المحترم فرنسيس أفندي بطاطو وحضرة بنايوت أفندي صوابيني وسلمهم أوامر تعيينهم أعضاء لمجلس إدارة اللواء. كما دعا جناب رباح أفندي الحسيني وسليم أفندي الحسيني ومخائيل راحيل وحنا أفندي أبو زخريا وموسى أفندي نابون وسلمهم أوامر تعيينهم مميزين حقوق اللواء. وتأخر تعيين السيد عبد الرحمن نافذ الخالدي عضوا في المجلس لتأخره في يافا. كما تقرر تعيين رئاسة إدارة المركز بالقدس الشريف إلى صاحب السيادة والمكرمة على زاده السيد موسى أفندي فيض الله.»^٨ ومن غرائب الأحداث التي وقعت بالقدس الشريف ونشرتها الثمرات ما وقع يوم الجمعة في ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢٩٣ [١٢] هـ. ٣ حزيران ١٨٧١ م. وهو أنه في الساعة الثانية من اليوم المذكور تخايل بأفكار أفراد طائفة اللاتين من مسيحيي القدس الشريف ما أوجب دخول الخوف عليهم. وبعد ساعة نقلوا حريمهم وأولادهم إلى ترسانطة داخل القدس. وعندما شاهد ذلك باقي طوائف المسيحيين الروم والأرمن انتقل إليهم ذلك الخوف فلبجأوا إلى أديرتهم. كما أن طائفة الموسويين أيضاً أغلقوا أبواب حوانيتهم. واختفوا داخل بيوتهم. كل ذلك وقع من دون أن يعلم أحد الأسباب التي أوجبت هذا الرعب.^٩

٨ موسى بن فيض الله العلمي: أحد أعيان القدس البارزين في أواخر القرن التاسع عشر. عين عضواً في مجلس إدارة متصرفية القدس ثم رئيساً لمجلس بلديتها. وهو جد موسى العلمي أحد شخصيات القدس في عهد الانتداب البريطاني.

٩ راجع عدد ثمرات الفنون ٦١ في ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٢٩٦

أما طائفة الإسلام فعندما شاهدوا باقي الطوائف على هذه الصور الهائلة أغلقوا أبواب دكاكينهم ولجأ بعضهم إلى المسجد الأقصى ضاجاً بالدعاء للباري تعالى بكشف الكرب. وعندما بلغ ذلك مسامع السيد محمد طاهر الحسيني^{١٠} مفتي القدس ووكيل متصرفها سارع بإرسال العساكر الشاهانية برفقة القومندان عزتو إسماعيل بيك أميرالاي الرديف ويوسف آغا البكباش. واتخذ جميع الإجراءات الأمنية اللازمة. ووضع قسماً من تلك القوات للحراسة خارج أسوار المدينة. وفريقاً آخر للحراسة عند أبواب الأديرة والكنائس وبساتير المحلات داخل المدينة. ثم توجه مصطفى ابن عمه موسى أفندي الحسيني من^{١١} أعضاء مجلس الإدارة وحضرة أحمد أفندي الحسيني. رئيس محكمة التجارة. وأحد أقاربه حسن أفندي جودة الحسيني. ونزل إلى الشوارع وزار الرؤساء الروحانيين بأديرتهم وكنائسهم. وأزال من عقولهم الرعب. وأسكن في نفوسهم الأمن. كما أمر بتحرير التلغرافات لتهدئة روع أهالي بيت لحم وقضاء يافا وغزة. كما أرسل قوات للقرى ولقضاء الخليل ولسائر الجهات. والأمر العجيب أن هذه الحادثة وقعت وانتهت دون أن يعلم أحد أسبابها. ولا اطلع على منشئها.

وجاء في إحدى الإعلانات أنه قد طبع في الاسكندرية كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي للإمام عماد الدين محمد كاتب سر السلطان صلاح الدين الأيوبي وهو من جزئين من كان له رغبة في

الموافق ٢ حزيران ١٨٧١.

١٠ محمد طاهر الحسيني: ورت وظيفة والده مصطفى أفندي مفتي القدس. شغل منصب الإفتاء في القدس أكثر من أربعين عاماً بلا انقطاع. شغل منصب وكيل متصرف القدس. تنبه إلى الخطر الصهيوني المحقق والقيام ببيع الأراضي للصهاينة. توفي في ١٩٠٨ وخلفه في الإفتاء اثنان من أبنائه الشيخ محمد كامل ثم الحاج محمد أمين الحسيني.

١١ حول هذه الحادثة دون الجد أحمد راسم الحسيني في دفتر صغير. كان يكتب فيه بعض الحوادث التي جرت خلال حياته. يقول أنه «في الساعة الرابعة من يوم الجمعة ماشعنا إلا والناس وتراجم القناصل تتراكم لمفي أفندي وتخبره أن في البلدة حركة وخوف. وأصحاب الدكاكين يسكرون دكاكينهم... فافتضى أنه خرج هذا الفقير مع حسن أفندي جودة. وتبعه على الأثر مفتي أفندي مع بقية مأموريين الحكومة. فوجدنا الناس تتراكم. فالنصارى تذهب إلى الأديرة والكنائس. واليهود لمعابدها. والمسلمين تذهب للحرم. فالنصارى تقول أن المسلمين مرادهم يذبحونا. والمسلمين يقولون أنه خرج على يافا مراكب عسكر للنصارى ليأخذوا القدس.»

أخبار فلسطين وأعمال الدولة فيها

جاء في عدد الثمرات الثالث، الصادر في ٤ أيار ١٨٧٥ م. أن عزت أفندي محافظ البلقاء أحضر حمل أحد عشر جملاً من أشتال قصب السكر. وأمر بزرعتها في غور الضارية. وبلغت مصاريف ذلك ٣٢٩٢ قرشاً. وورد في العدد الخامس، الصادر في ١٨ أيار ١٨٧٥ م. أن جماعة من أهالي أوروبا انتدبوا لمد سكة حديد من يافا إلى القدس الشريف واستحصلوا على فرمان لإجراء هذا المشروع تسهيلاً للزوار والسواح الواردين إلى القدس الشريف في كل عام. ومدّ فرع إلى الجهات المصرية ونقل البضائع التي لا غنى لمصر عنها. كالصابون والزيت. وهذا المشروع وإن ترتبت عليه فوائد كثيرة إلا أنه لا يخلو من أضرار لمرور سكة الحديد من طرف المقبرة الإسلامية وخرقها عدد من البساتين الزراعية. وجاء أيضاً أنه «شرع بانشاء طريق بين نابلس ويافا وأنه يلزم لذلك إنشاء اثنين عشر جسراً بين يافا وأبار عدس التي هي آخر حدود يافا. وأن مصاريفها على ما سمعنا تبلغ مائتي ألف قرش. وأنه طلب من أهل الحمية والغيرة بدفع ما تقتضيه غيرته ومروءته».

ورد في عدد الثمرات الثاني عشر الصادر في ٢٤ حزيران ١٨٧٥ م أن نزاعاً نشب بين عريان^{١١} غزّة التابع للواء القدس الشريف. وكتب مراسل الثمرات في القدس الذي عين حديثاً أنّ سعادة المتصرف أرسل رفعتلو السيد عمر فهمي أفندي الحسيني. مأمور الدفتر الخافاني، بما عهده فيه من حسن الدراية. فتوجه إلى منازل العشيرتين محاولاً إجراء الصلح وإنهاء النزاع بينهما. وتحدث المجلة في عددها الصادر في ١٤ تشرين الأول ١٨٧٥ م أنه بمناسبة حلول شهر رمضان [١٢٩٢ هـ].^{١٢} أمر قائمقام يافا بإطلاق المدافع كل ليلة. مما استوجب شكر سائر المسلمين. كما أمر بتأديب كل من يرى من السكان مفطراً. وأمر بقفل أماكن القهوة. لأنها مأوى للمنتهكين للحرمت. المنتهكين في فعل السيئات. ويتحدث مكاتب الثمرات في نابلس في العدد الصادر في ١١ كانون الأول ١٨٧٥ عن إتمام عمارة القشلة الهمايونية للعساكر الشاهانية في المدينة في ١٧ ذي القعدة ١٢٩٣ [١٢٢٠]. ٣ كانون الأول ١٨٧٦ م. وصار تشريف القشلة بالطرة السلطانية التي نقش

هذا الكتاب النفيس فليطلبه من الخواجه حبيب عرزوزي وثمنه ٣٠ جنيه مصري.

تحدث الثمرات في عددها ١٣٤ في ٢٥ أيلول ١٨٧٧ م عن سوء الأحوال الاقتصادية في القدس فقد انتشر الضنك والضيّق بين السكان. ممّا جعلهم في اضطراب عظيم. حيث أنّ محتكري الغلال قاموا بحبس الحبوب في مخازنهم. ممّا أدّى إلى ارتفاع أسعارها. وأنّ أحد تجار غزّة حبس في مخازنه ما يزيد عن نصف مليون كيلة من الحنطة. فيما لبت الحكومة تنبّه له وتكرهه على بيع تلك الغلال بالثمن المعتدل. وفي ١٦ شباط ١٨٧٨ م يكتب مكاتب الثمرات عن توقف الأشغال والأعمال في القدس التي تعتبر من البلاد الفقيرة. وأن أهلها يعدّون من فقراء العباد. وفي ١٧ آذار ١٨٧٨ م تتحدث الثمرات عن قيام إدارة الأوقاف في القدس بإصلاح طريق مياه البرك (برك سليمان). «فوصل مأوها إلى هذه الأنحاء. وبها حبذا لو جرى ذلك عند شح الماء حيث أنه في فصل الشتاء الحالي هطلت السماء مدراراً فأروت الأرض. ونأمل أن يدوم جريان الماء في فصل الصيف». وتكتب الثمرات في ذات العدد عن ورود أمر بتشكيل المكاتب (المدارس) في القدس. فتقول «وبلغنا أنّه تشكلت جمعية خيرية رئيسها الأديب الفاضل حسين زاده السيد موسى كاظم أفندي. وأنّ أعضاءها موصوفون بالمعارف والذكاء. وحيث كان مبادئ الجمعيات الخيرية ترويح المعارف صرنا نأمل إناطة إنشاء هذه المدارس بعهد الجمعية الخيرية المذكورة».

وورد للثمرات رسالة من مكاتب آخر غير جناب وكيلها. بها أنّه منذ تأليف مجلس البلدية تحت رئاسة خالدي زاده يوسف ضيا أفندي ونحن صامتون لا نتكلم عن شيء. منتظرين ما سيحدث من الإصلاح والتنظيم. غير أنّه خاب أملنا. لأننا نراه إلى الآن غير ملتفت لأمر البلد. مع أنّنا كنا نعهد أنّ أعضاءه من أصحاب الدراية والإقدام خصوصاً جناب مكرم تلو موسى فيضي أفندي. فشوارع البلدة وأزقتها غاصّة بالأوحال والأوساخ. تفوح رائحتها. مما جلب الأمراض المتنوعة. عدا عن حالة الفقر فإنّها في أسوأ حال. لأنّ المأكولات تباع بأسعار باهظة. فرطل اللحم يباع بثلاثة بشالك.

١٢ أي العشائر البدوية القاطنة في قضاء غزّة [المحرر].

١٣ يصادف أول رمضان من هذا العام يوم الجمعة الأول من تشرين الأول ١٨٧٥ م [المحرر].



سعيد أحمد راسم الحسيني.

بماء الذهب في احتفال عظيم بحضور سعادة المتصرف وأعضاء المجالس والوجوه والتجار وتليت الدعوات من فضيلة مفتي نابلس للدولة العليا.

الأحوال الصحيّة

اهتمت الثمرات بأخبار الشئون الصحيّة وبانتشار الأمراض. فيذكر مكاتبها في نابلس في العدد ١٦ في ٢٢ آب ١٨٧٥ م. بعد أن انتشر وباء الكوليرا في شهر آب ١٨٧٥ م في أنحاء عديدة من الدولة خاصة ولاية سورية. أنّ صحة الناس في المدينة جيدة ولا أثر للداء المدهش. وأنهم بحول الله آمنون من هذا المرض. وقد جاء في ذات العدد أنّ الناس في مدينة القدس قلقون والأفكار مضطربة من انتشار المرض المعلوم (دون الإشارة إلى اسمه). إلا أنّ صحة الناس جيدة. ويذكر المكاتب أنّ البلدية تقوم بأعمال التنظيف لمنع انتشار المرض. ونشرت الفنون في ذات العدد تفاصيل أخرى عن مرض الكوليرا. الذي كان يعرف أيضاً بالهواء الأصفر. في مدن أخرى. فتنقل ازدياد انتشاره في حلب. وأنّه كان قد انتشر سابقاً في شمال فلسطين كطبريا وترشيحة والناصرية وشفاعمرو. أما عن وضعه في بيروت فقد كان كان شديد السوء. إذ «خرج منها بعض سكانها إلى الجبال. وأصبح بعضهم بلا أسباب معاش فاشتدت الفاقة والحاجة. وأقيمت القورنتينا (الحجر الصحي) في قرى لبنان للواردين إليها من بيروت. ويتضمن نظام الحجر الصحي هذا إعداد أكنة لإقامة من يدخل البلاد مدة معينة حتى يتأكد من خلوّه من المرض وهذا يشمل الجميع حتى الملوك.»

الأحداث الدولية

وتأثيرها على الدولة العثمانية

وقد أدى ضعف الدولة أمام الدول الأوروبية إلى ازدياد تدخل هذه الدول في الأمور الداخلية للدولة. فعندما زار قيصر النمسا القدس والأماكن المقدسة. طلب هدم بعض الأبنية المقامة على أملاك طائفة اللاتين ضمن مدرسة الخانقاه الصلاحية. فتحدثت الصحيفة عن صدور الإرادة المملوكانية بهدم أحد

الأخوار^{١٤} الكائنة ضمن مشتملات مدرسة خانقاه السادات الصوفية داخل القدس الشريف. التي اقتطعها حضرة السلطان صلاح الدين أيام فتح القدس من كنيسة القيامة. وحيث أن هذا الياخور محدثاً وواقعاً على الهيكل المختص بطائفة اللاتين. وصدرت الإرادة السامية ببناء محلات بدلاً منه في الجهة الغربية من المدرسة المذكورة. وتولت الخزينة العامرة صرف النفقات جميعها. وقد جرى ذلك بناء على الالتماس الواقع من جلاله قيصر أوستريا (النمسا) الذي حضر لزيارة الأماكن المقدسة.

وفي عددها الصادر في ١١ كانون الأول ١٨٧٥ تحدثت الثمرات عن قيام الخديوية المصرية ببيع أسهمها في ترعة (قناة) السويس لدولة الإنجليز. وكان بيع خديوي مصر اسماعيل أسهم الحكومة المصرية لبريطانيا لتغطية ديونه وسداد الأموال

١٤ الأخور هو اصطلح الخيل. ويقال له ياخور.

التي افترضها من البنوك الأجنبية التي ضغطت عليه لسدادها. وكان ذلك بدايه التدخل الأجنبي في شؤون مصر.

وتتطرق الثمرات إلى الحالة في أوروبا وعن استعداد دولها العسكرية وإن النمسا كانت أول من شرع في الاستعداد أملاً في أن تسنح لها الفرصة لأخذ الثأر ممن كان سبباً في هزائمها. وأن الدول الأوروبية أخذت تراقب كل حركة تصدر من جاراتها وتضطرب لأي تصرف.

وفي صيف ١٨٧٦ بدأت أخبار الثورة في ولاية الصرب والجبل الأسود تطغى على ما عداها. إلا أن الثمرات تظهر تفوق القوات العثمانية وحرها لمقاتلي الصرب. وقد صورت الوضع بأن شردمة الهوان وطغمة العصيان قد شقت عصا الطاعة وجاهرت بالعصيان لذا فإن الواجب يقتضي تدميرهم. ويتطرق العدد الصادر في ١٧ ذي القعدة ١٢٩٣هـ [١٩١٣]. ٣ كانون الأول ١٨٧٦ م. لاضطراب جبل الأمن في ولاية الهرسك واضطرار الدولة العلية إلى إرسال تعزيزات عسكرية حتى بلغ عددها أربعين ألفاً. وقد بدأت المشكلة عندما امتنع أهالي قرية مستار عن أداء ما عليهم للدولة. وطردها الضبطية. وأثاروا سكان بعض القرى. وأمدتهم سكان دلهاسيا والجبل الأسود

والسرب (الصرب) بالمال والرجال والمهمات الحربية. واتسع نطاق التمرد. فهاجموا القرى المسلمة وقتلوا سكانها.

وحاولت روسيا التدخل واستغلال الوضع لمصلحتها. إلا أن الدول الأوروبية الأخرى عارضت ذلك بشدة. وتطورت الأمور وأعلنت روسيا الحرب على الدولة العلية في نيسان ١٨٧٧ م. وقد أوردت الثمرات تفاصيل المعارك وانتصارات العثمانيين وخسائر الروس. وفي العدد ١٣٦ الصادر في ١٥ كانون الأول ١٨٧٧ م خبر منع جريدة الأهرام من دخول عموم القدس الشريف نظراً لما كانت تنشره من أخبار متعلقة بالحرب. ويذكر مكاتب الثمرات أنه كان يشاهد السكان تنفر من مطالعتها. كما يرى الناس ممنونين من منع دخولها.

وفي الواقع فقد تغير الوضع ابتداء من كانون الثاني ١٨٧٨ م. فقد شرعت القوات الروسية في التقدم على الجهة الرومانية. وسقطت صوفيا عاصمة بلغاريا. وتلتها أدنة. حتى أن الخطر تهدد الآستانة. مما اضطر الدولة إلى توقيع الهدنة مع روسيا. وأجبر السلطان على قبول طلبات روسيا. وقد أدى انحسار السيطرة العثمانية على بلغاريا إلى نزوح آلاف من الرعايا العثمانيين إلى أراضي الدولة.